المخلوقات وكانت الدكاكير معروفة عندهم . وكل من كتب عن اديان العرب من القدمين ومحدثين لم يتعرضوا بنوع خاص لهذا الباب او لم يلجوه الاَّ عرضاً فاحببنا ان نرصد له هذه النبذة قياماً بالواجب . وسوف نبين في فرصة اخرى انهم عبدوا بعض الحيوانات ايضاً دحضاً لمن انكر ذلك من كتَّاب هذا العصر ولمن قال بالخلاف من اهل العصور السابقة والله ولي التيسير والتوفيق

امكج

امارات الوحشية

في حيواناتنا الداجنة

اهتدى الانسان منذ ازمان بعيدة الى ادجان بعض الحيوانات وهو يستخدمها الآن لاغراض شتى : للحمل والجر وللطعم والملبس . فنحن نستخدم الفرس والحمار للحمل ونستخدم الثور في جر المحراث او غيره من الاثقال ونأكل لحمهُ ولحوم الخراف والمعز ونستعمل اصوافها في ملابسنا

واذا نحن نظرنا الى هذه الحيوانات من الوجهة البيولوجية وجدنا في اخلاقها وفي خلقتها دلائل الوحشية القديمة كما نلحظ ايضاً الاسباب التي جعلت الانسان يختارها ويدجنها دون غيرها من الحيوانات

فاول ما يلحظهُ الانسان في هذه الحيوانات انها كلها اجتماعية — اي انها تعيش مجتمعة اسراباً . فالخيل والحمير والثيران والخراف والمعز والفيلة والكلاب كانت تعيش عيشة اجتماعية وهذا ما يسَّر للانسان تذليلها وسهَّل عليها عشرتهُ . لان الحيوان الاجتماعي يختلف عن الحيوان الانفرادي — مثل الاسد والضبع — بقدرتهِ على التفاهم مع اخوانهِ وادراكهِ لحقوق الغير والطاعة لرئيسهِ عند اللزوم والنظر الى مصلحة السرب او القطيع العامة . وهذا ليس في الحيوان الانفرادي كالنمر والاسد والضبع فانها لانفرادها في معيشتها لا تعرف كيف تعامل افراد نوعها . فاذا تقابل اسدان اعتركا في الحال وقتل احدهما الآخر

والانسان لم يدجن الاسد والضبع والنمر ونحوها من الحيوانات الانفرادية اي التي تعيش منفردة او لم يستطع ادجانها لانها لا تدرك معنى الاجتماع وطرق المعاملة وحقوق الغير

كما يدركها الحيوان الاجتماعي كالفرس . فالفرس ينظر الى الانسان مثلما ينظر الى فرس آخر فهو يعرف من حياته الاجتماعية القديمة انهُ لا يحسن بهِ عض اخوانهِ او رفسها او الاعتداء على طعامها او عصيان امر رئيسهِ . والانسان يستفيد من هذه الاخلاق فيذللهُ ويركبهُ

والفرس حيوان سهول ويظهر انهُ نشأ في جزيرة العرب او في ارض تماثلها في فلة خصبها وانبساط ارضها . لانهُ اذا اكل اختفَّ ما امامهُ اختفافاً كأنهُ معتاد رعي النباتات والجذور القصيرة ولا يخرج لسانهُ ويجز العشب جزّاً كما تفعل البقرة لان البقر كانت تعيش قديماً في الغابات فكانت تلتقط غذاءها بلسانها من اوراق الاشجار الكثيفة . ولذلك تجد فلاحنا يربط الخيول والحمير وراء البقر والجواميس . فاذا رعت البقرة جانباً من المرعى ربط فيهِ الفرس فيخف ما بقي فيهِ

ولا شك في ان سرعة الخيل كانت سلاحها الاكبر امام اعدائها . ولو كان الفرس حيوان غابات لما اعتادت هذه السرعة في الجري وهذا يدل على انهُ كان يعيش في السهول . ولا شك ايضاً في ان الذئاب كانت العامل الاكبر في ايجاد هذه المزية فيهِ لانها تكاد تكون العدو الوحيد لهُ في مواطنهِ . فكانت دائماً تطاردهُ وتفترس كل بطيء يتأخر عن اللحاق بالقطيع فلا يبقى ويتوالد الا السريع . فالذئب سبب سرعة الخيل

ثم ان ضرع الفرس صغير مع ان ولدها يحتاج الى كمية من اللبن توازي الكمية التي يرضعها العجل من امهِ او اكثر منها . والسبب في ذلك ان المهر لا يرضع الا قليلاً في مواعيد متقاربة وذلك اولاً لانهُ يلازم امهُ دائماً ولا يفارقها وثانياً لكي لا يملأ بطنهُ فيبقى خفيفاً قادراً على اللحاق بامهِ وقت هجوم العدو عليها . والحال على عكس ذلك في البقرة فانها تخفي ولدها في خميلة او دغل بعد ان تشبعهُ وتسرح النهار كلهُ بعيداً عنهُ . وعند رجوعها يكون قد اشتد عليهِ الجوع فيحتاج الى لبن كثير . وهذا كان السبب في كبر ضرع البقرة الذي استفاد منهُ الانسان

واذا قارنت بين حوافر الفرس واظلاف الثور وجدت أن اظلاف الثور مشقوقة . والسبب في ذلك ان الثور كان يعيش في الغابات حيث الوحل والتراب الندي . فبقيت قدمهُ مشقوقة لكي تتسع حينما يقف عليها ثم تضيق حينما يرفعها فيسهل عليهِ نزعها من الوحل . ولو كانت مثل حافر الفرس لالتصقت بالوحل وعاقتهُ عن الجري . فحافر الفرس مصنوع للرمال الجافة واظلاف الثور للتراب الرطب او للوحل الذي يكون عادة في الغابات

والحمار يماثل الفرس في تركيبه وهما قريبان بيولوجيًّا ولهذا يمكن المزاوجة بينهما غير ان نسلها يكون في الغالب عاقراً . واهم ما يستغربهُ الانسان في الحمير كراهتها للسير في الماء . وقد فسر احدهم ذلك بان الحمير نشأت في البلاد التي يكثر انتشاح في انهارها . فكراهة الحمار للماء آتية اليهِ من هذه الذكرى فهو ابداً يرى نفريزته شبح عدو في الماء

وملاح الثور قرناهُ وقوتهما على النطاح . وقد استثمر الانسان هذه الخاصية واستعملهُ للجر لان الجر والنطاح من قبيل واحد . فالثور وهو حامل نير المحراث يفعل ما يفعلهُ مع اعدائهِ عند المراك . ولهذا السبب نظن اننا نخطئ في وضع النير على رقبتهِ وكان الاولى ان نقرنهُ برأسهِ كما يفعل الفلاحون الالمان فان قوة الثور في رأسهِ عند قرنيهِ وجميع عضلات رقبتهِ معدة لتقوية رأسهِ

ومما يلاحظ ان الثور يكره اللون الاحمر ويهتاج عند رؤيتهِ . والسبب في ذلك على ما يرجح الباحثون هو توهمهُ وجود الدم . فانهُ من الملاحظ ان الجواميس الوحشية اذا رأت جاموساً مجروحاً بينها تُخفهُ نطاحاً حتى تقتلهُ او تبعدهُ عنها . وقد يظهر ان هذا العمل قطيع ولكن يرجح ان الغرض منهُ هو ابعاد الثور المجروح لكي لا يبقى الوحش الذي جرحهُ متابعاً لهُ في سيرهِ . فالقطيع يطردهُ ويبعدهُ عنهُ لكي يبعد عنهُ الوحش الذي يتأثرهُ . كأن الجواميس تقول للوحش « خذهُ واتركنا » اي ان الانتخاب الطبيعي قد جعل هذه الحيوانات تطرد الجريح عنها لفائدة المجموع

والكلب من الحيوانات التي ادجنها الانسان قديمًا — وهو ذئب بخلقهِ وخُلقهِ ولذلك تنجح المزاوجة بينهما دائمًا ولا يكون نسلها عاقراً كالبغل . ومعنى ذلك ان قرابة الذئب والكلب اشد من قرابة الفرس والحمار . واذا نظرت الى الكلاب وهي تتعارك او تتهارش رأيت ان الكلب يعامل اخوانهُ الكلاب مثلما يعامل الانسان (قوانين التقطيع الاجتماعية — لان الكلاب كانت تعيش قطعانًا) — هي نفس القوانين التي يراعيها الكلب عند معاملتهِ لصاحبهِ . فانهُ ينظر اليهِ كأنهُ كلب كبير شديد الحيلة يمشي على رجليهِ وينظر الى اهل البيت الذي يسكنهُ كأنهم افراد قطيع واحد ولذلك يدافع عن اصحابهِ ويدفع اعداءهم كأنهم اعداؤهُ ويقاتلهم الى حد الموت

ولغة الكلب من ابين لغات الحيوانات . فهو يوفق عند الخوف ويضغر عند الجوع ويهرّ عند ابتداء القتال وينبح اذا اراد ان ينادي اخوانهُ . ولا شك ان هذه الاصوات

كانت تنبذهُ قديماً لانهُ لضعفهِ كان لا يصيد الاَّ مجتمعاً . فهذه الاصوات تدل سائر القطيع على مراد الكلب المصوت

وللكلب حركات لا تقل عن الاصوات في الدلالة على ما في نفسهِ . فهو اذا اذعن وانقر بذنبهِ واستلقى على ظهرهِ وارخى ساقيهِ وصمت . يفعل ذلك امام صاحبهِ اذا لوَّح امامهُ بالعصا كما يفعلهُ امام كلب كبير اذا رأى الشر في عينيهِ . وذنَب الكلب آلة تفاهم بينهُ وبين اخوانهِ . فهو يهصهص بهِ عند التذلل والطلب ويرفعهُ عند الغضب . واذا جرى جذبهُ الى ما بين ساقيهِ . قيل والغرض من ذلك ان لا يمسكهُ بهِ عدو يتأثرهُ . فهذه الاصوات والحركات تدل دلالة واضحة على ان الكلب كان اجتماعياً لانهُ لا فائدة منها لحيوان انفرادي لا يحتاج الى اخوانهِ ولا تحتاج هي اليهِ

والحيوان الانفرادي الوحيد الذي يعيش مع الانسان هو القط . ولا يخفى ان القط ليس حيواناً انيساً . وغاية ما يفعل انهُ يأوي الى بيوتنا كما تأوي اليهِ الفيران والعصافير . ويمتاز عنها بقلة خوفهِ . فهو لا يصاحب احداً واذا انتقل سكان البيت الذي يسكنهُ لم يذهب معهم بل بقي فيهِ واذا رأى صاحبهُ يتشاجر مع غيرهِ بقي هادئاً لا يتحرك لمساعدتهِ . واذا رأى قطين يتعاركان تركهما . وذلك لانهُ انفرادي بطبعهِ لا يفهم اصطلاحات الاجتماع وآدابهُ كالكلب . وقد رأينا في الملاعب من يعلِّم الخيل والحمير والكلاب والمعز العاباً شتى ولكننا لم نرَ احداً انفلح في تعليم قط لعبة ما . وذلك لان القط لا يفهم اصول المعاملة من طاعة وجزاء ومكافأة واشتراك وغير ذلك مما تفهمهُ الحيوانات الاجتماعية . لان ذلك من مقتضيات الاجتماع والتعليم

ولون القط يدل على انهُ كان حيوان غابات لانهُ يماثل ظل اوراق الاشجار على الارض . فكان يختفي وهو وحش بهذه الالوان ويخفي بواسطتها عن اعين اعدائهِ وفرائسهِ . ويظهر لنا ان الالوان الزاهية او البيضاء او السوداء البهية التي ترى في القطط احياناً حديثة العهد اي انها حدثت فيها بعد اقامتها في البيوت بين الناس وعدم احتياجها الى الاختفاء باللون

ومما يلاحظ ان صغار القطط وهي في وكناتها تفحُّ كالثعبان . واكثر صغار الطيور تفعل ذلك ايضاً وهي في عشاشها . وغرضها من ذلك سيء ما يظن هو طرد العدو بايهامهِ ان في الوكنة او العش ثعباناً سامّاً لان الثعابين اعداء الداء لاكثر الطيور والحيوانات البرونة ولذلك فان هذه تخافها طبعاً غريزةً من غير تعلُّم . ولتقليد فراخ الطيور والقطط للثعابين يعتبر من العوامل البقائية المهمة في حياتها

والخروف آنس الحيوانات . ولو باد الانسان من الارض فجأة لما عاشت الخراف بعده اسبوعين . لان الخروف اصبح اعزل لا يحسن شيئاً من اصول القتال وعاداته . فاذا ارتفعت عنهُ حماية الانسان ورعايتهُ لم تبقَ عليهِ الحيوانات المفترسة ولم يستطع مقاومتها . وقد يمكن ان يعود الفرس والكلب والثور والقط الى الوحشية التامة وتكاثر الوحوش الضارية ولكننا لا نظن انهُ يمكن للخروف ان يفعل ذلك

الخروف حيوان اجتماعي محض . ومما يلاحظ فيهِ انهُ في عدوهِ يقتفي اثر سابقهِ بالضبط ولا يحيد قيد شبر عنهُ . مثال ذلك انهُ قد يقفز خروف فوق قناة فترى ان بقية خرفان القطيع تفعل فعلهُ بالضبط من غير روية او تعمُّل . وهذا ليس بالامر الهين كما يظهر لاول وهلة فاذا اجتمع مئة رجل وارادوا ان يقفزوا فوق قناة لم يستطيعوا ذلك الاَّ بعد ان يفكر كلٌّ منهم و يقيس بعقلهِ المسافة التي يجب ان تقفز ودرجة القفز الذي يجب ان يبدأ قبل القفز . ولكن الخراف تقفز بداهة بغير روية . والسبب في ذلك على ما نظن هو حاجتها قديماً الى تقدير الاشياء التي من هذا القبيل بداهة وسريعاً لان الخروف حيوان جبلي بدليل وجود ابناء اعمامهِ المتوحشة الآن في الجبال — فهو محتاج في جريهِ الى تتبع قائدهِ بسرعة وخفة حتى لا يدركهُ العدو المطارد

والخنزير من الحيوانات التي اصبحت في يد الانسان آلة ميكانيكية او معملاً كيماوياً لتحويل المادة النباتية الى مادة حيوانية فانهُ سرعان ما تصل الاعشاب الى كرشهِ حتى تتحول شحماً ولحماً

والسبب في ذلك ان الخنزير كان يسكن قديماً الاقاليم الباردة حيث يتجرد وجه الارض من النباتات وقت الشتاء . ودليل ذلك ان الدب — ابن عم الخنزير — من سكان تلك الاقاليم الى الآن فكان الخنزير يناوي وقت الشتاء فيقضي نحو خمسة اشهر او ستة بغير طعام . ولهذا السبب نشأت فيهِ تلك الشراهة الخارقة التي تبعثهُ دائماً للتفتيش والتنقيب عن الطعام لانهُ كان يضطر الى اختزان كمية كبيرة من الشحم في جسمهِ ليتغذى بها وقت الشتاء على نحو ما يفعل النحل من اختزان العسل . والعسل والشحم مادة واحدة اذا اعتبرناهما كيماويًّا او يكادان يكونان كذلك . والفرق بينهما ان النحل يخزن عسلهُ في بيوت معدَّة لذلك حتى اذا جاء الشتاء اكلهُ اما الخنزير فيخزن شحمهُ في جسمهِ

ومن الحيوانات التي ذلَّلها الانسان واستولدها للذبح المعز . وأهم ما نلاحظهُ فيها خفتها في الحركة وقدرتها العجيبة على المشي على الحافات الضيقة او المستدقة . فانك قد ترى احياناً

عنزتين تروحان وتغدوان تمرحان وتتواثبان على حائط عالٍ لا يزيد سمكهُ على ربع متر او اقل . قيل والسبب في ذلك ان المعز كانت تعيش قديمًا على قمم الجبال وتحتاج الى الوثوب والالتجاء الى القمم المستدقة لامتناعها على الحيوانات المفترسة . ومصداق ذلك أن الوعل والايل يفعلان ذلك الآن وهما من جنس المعز ويمثلان الآن عيشتها الوحشية القديمة . وكثيرون من اصحاب الملاعب يستفيدون من هذه الخاصية في الماعز ويدربونهُ على المشي على الحافات الدقيقة مما يدهش لغرابتهِ المشاهدون

والجمل من الحيوانات التي يظهر في خلقها وخلقها تأثير الوسط الذي عاشت فيهِ قديمًا . فهو حيوان صحاري ورمال قليلة المراعي والمياه . يمشي على خف لا يليق لغير الرمال الجافة . ومن ينظر الى جمل يمشي في شوارعنا الموحلة او المرشوشة يشعر ان الخف صنع للرمال . والجمل مشهور بصبرهِ على العطش وقدرتهِ على اختزان ما يكفيهِ من المياه مدة طويلة . وهو صبور على الجوع ايضًا لان في سنامهِ كمية وافرة من الغذاء يتقوَّت بها عند قلة الطعام . فهو من هذه الوجهة مثل الخازير غير انهُ لا يفرق شحمهُ مثلهُ على جميع اعضائهِ بل يجمعهُ في اعلى ظهرهِ . وهذه كلها خصائص توافق الصحاري التي كان يعيش فيها

ومن اراد ان يلمح لمحة من حياة الجمل الوحشية فلينظر اليهِ وهو يأكل الحسك والاشواك . فان شغفهُ الشديد بها يدل على تأصُّل ذوقهِ لهذه النباتات الصحراوية . فان الصحاري لا تنبت لقحل ارضها وقلة الغيث فيها غير هذه الاشواك . وقد كانت الجمال قديمًا تفتش عنها وتتغذى بها . وما زال فلاحنا للآن اذا شعر بضعف شهوة الجمل في اكل البرسيم او الفول — وهما من الاطايب لمثل هذا الاعرابي الجلف — يأخذهُ الى حيث يجد هذه الاشواك فيرد اليهِ شهوة الاكل بها

والفيل اكبر الحيوانات التي ذلَّلها الانسان . ولو لم يكن اجتماعيًّا في حياتهِ الوحشية لما استطعنا تذليلهُ . فان الانسان اضعف منهُ قوة ولكننا لم نتمكن من تذليلهِ وذلك لانهُ لا يعرف طرق المعاملة مثل الحيوانات الاجتماعية ولا يعرف معنى العقاب والطاعة والمكافأة ويشعر اذا قربنا منهُ بالعداء وشهوة الافتراس . اما الفيل فينظر الينا كما ينظر الى اخوانهِ الفيلة فيعرف ما لهُ وما عليهِ ويميز بين العقاب الخفيف عند الخطإ الطفيف والعقاب الشديد عند الخطإ الكبير

والقرد من الحيوانات الاجتماعية وقد آلفهُ الانسان ولكنهُ لم يستخدمهُ لضعفهِ . وقد جعل الاميركيون يستخدمون الاورانج الآن في رعاية الغنم

سلامه موسى